أوراق إستراتيجية

مخاطرة بوش في الشرق الأوسط الكبير *December, 2005*

Bush's Great Middle East Gamble[1]

Reuel Marc Gerecht

الخيار الأفضل لإيران هو الربح في العراق

منذ 11 أيلول، أصبح الرئيس بوش والمنطقة الأكثر تشنجاً في العالم الإسلامي توأمان متلازمان متصلان في العراق. في حال نجاح التجربة العراقية _ بالتأكيد بنهاية رئاسة بوش سوف نعلم إمكانية قيام عراق ديمقراطي جديد مفعم بالحيوية _ يومها سيقف الرئيس بوش إلى جانب رونالد ريغن، الرئيس "الليبرالي" أو المتحرر والمنبوذ من قبل "الواقعيين"، كأحد القادة الأكثر ذكاءً والأبعد نظراً. إن الضجة حول مسؤول الإستخبارات الأمريكية فاليري بليم لن تكون بحجم إيران غيت، والتي بالرغم من عدم صمتها لم يكن لديها التأثير الخطير على الإنجازات التاريخية لريغان في مناهضة الإتحاد السوفياتي. ولكن في حال انهيار العراق سوف يذم الرئيس بوش بقساوة من قبل الديمقراطيين والجمهوريين أكثر من LBj المهندس الأساسي لفشل أمريكا في فيتنام. وقد يؤدي ذلك إلى إعراض غالبية الأمريكيين عن إعطاء إدارة بوش درجة نجاح في الشرق الأوسط. حتى أن ذلك سيؤدي إلى إسقاط ولاية بوش من قبل المحافظين الجدد، آخذين بعين الإعتبار حلم أو تسامح بوش مع عجز البنتاغون، وزارة الخارجية، ووكالة الإستخبارات الأمريكية في العراق وغيرها.

هل هذا التشدد مبرر؟ كلا، ولكن هذا تنبيه. لم تستطع إدارة بوش التفاعل بذكاء مع أي قضية من قضايا الشرق الأوسط، من الحرب على العراق، مطاردة السلاح النووي لرجال الدين الإيرانيين، الصراع ضد الإستبداد والتطرف في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى نشر الديموقراطية في الشرق الأوسط الكبير. وفي خصوص إيران المتدينة والعضو في ما يعرف بـ"محور الشر" عمل الرئيس بوش بذات الضعف الذي تعامل به كلينتون ضد كوريا الشمالية (كان من الصعب تغطية الصورة المحرجة وكلام وزيرة الخارجية الأمريكية في بيونغ يانغ). كما أن مواصلة الإدارة إظهار الضعف تجاه النظام الديني الإيراني سوف يكون له آثار سيئة في العراق. بينما الخوف من قوة أمريكا هو في غاية الأهمية لحمل الجمهورية الإسلامية على التخلي عن محاولة تخريب ازدهار الديموقراطية. علما بأن الإدارة تتصرف بشكل أفضل في إعرابها عن فهم "التطرف الإسلامي"، وفي تعريف "الحرب على الإرهاب" على أنه صراع ضد التطرف الإسلامي، كما أنها لم تطور خطة لتشجيع وحث المستبدين في الشرق الأوسط لفتح أنظمتهم السياسية، لقد كان المسؤول في البيت الأبيض كريماً في وصف خطة إدارة بوش بالـ "خدعة".

العراق :
كلما تعلمنا أكثر عن الخلفية الحضارية للتمرد العراقي، أصبح من الواضح بأن هناك تحولاً حصل في المجتمع العراقي السني بحيث أن بعثيين سابقين متهمين بالتسلط والعقائد العلمانية أصبحوا من المسؤولين الأساسيين للحركات الإسلامية السنية المقاتلة. ويعتبر هذا تطوراً أوتحولاً طبيعياً إذا نظرنا إلى التاريخ الإسلامي المعاصر : فإذا نظرنا الجزائر، مصر، وسوريا التي يوجد فيها أنظمة متهمة بالتسلط واتباع العقائد العلمانية تتبع فيها سياسات خاصة وقذرة، ومع نمو هذه

[1] American Interprise Institute, November 14, 2005.

الأنظمية بشكل متماسك وفاسد، وتعفن العقائد التي تحملها، أصبح للهوية الإسلامية، والتعبير الديني امتدادات تجمعت بقوة وانحرفت بشكل كبير باتجاه العنف. ومع ذبول حكم صدام العلماني المستبد والذي كان الأكثر صرامة في الشرق الأوسط وانهياره الطبيعي، ولد شعور ديني قوي في استيقاظه، وقد حصل هذا لدى السنة والشيعة، وقد يكون حصل لدى الأكراد أيضاً، بالرغم من إصرار القيادة الكردية على التظاهر للغربيين بمحبة الشعب الكردي للإتجاه العلماني.

وبحسب كل الترجيحات، صعدت الحرب كثيراً من هذا التحول. ما تطلب 25 سنة في الجزائر، مصر وسوريا للظهور استغرق عقداً في العراق. التحليل الثقافي السيء للأقلية العربية السنية والتي لا تشكل أكثر من 20 % من سكان البلاد كان من المسيء إبرازه قبل استفتاء 15 تشرين الأول. عندما قام الرئيس بوش باتصال هاتفي مع عبد العزيز الحكيم قائد المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق والذي يمثل الحزب الأكبر للشيعة في العراق. قد يكون ذلك لحظة فاصلة للولايات المتحدة، لناحية العلاقة الأساسية لما أسميت أعراض الأصول السنية. كلما استغرق العرب السنة في أعمال العنف، كلما حاولنا استرضاءهم. أراد الرئيس التعامل مع الحكيم ليستميل التحالف العراقي الموحد المسيطر في البرلمان العراقي ليحذف من الدستور المقترح البند الداعي إلى قيام فيدرالية "شيعية". هذا البند يعطي الشيعة في المحافظات الجنوبية العراقي إمكانية خلق منطقة مستقلة شبيهة بالمنطقة الكردية في الشمال. من الواضح أن مستشاري الرئيس قالوا له أن نفور السنة من الدستور قد يتقلص في حال إلغاء البند المتعلق بالفيدرالية في الجنوب، والتي يراها السنة تمهيداً لانهيار وطني، كما أنه يؤدي بالسنة إلى السيطرة على القليل من النفط (الإحتياطي الأكبر من النفط موجود في الشمال والجنوب).

وقد كان هناك استنتاج أن جواب الحكيم سيكون "لا". أولاً، ليس للحكيم أو المجلس الأعلى التأثير في المجتمع الشيعي للقول "نعم" حتى إن أرادوا ذلك (أي المجلس الأعلى) ومن الواضح أنهم لا يريدون. منذ سنتين صفق الحكيم وبقية المجلس الأعلى وبالإضافة إلى معظم رجال الدين الشيعة بقيادة آية الله علي السيستاني لفكرة الفيدرالية الشيعية. كان من الصعب لديهم استيعاب وجود فيدرالية كردية. فالشيعة وخاصة رجال الدين، اعتبروا أنفسهم وليس العرب السنة، المستأمن الحقيقي للوجدان الوطني العراقي، بصفتهم المدافعين التاريخيين عن العنفوان الوطني (السنة استحوذوا على السلطة عبر التدخل البعثي، بينما قاتل الشيعة بفشل ضد الغازي الكافر).

ثمة أسباب متعددة لتغير الموقف الشيعي تجاه قيام الفيدرالية خلال السنتين الماضيتين منها حسد الأكراد، تنامي اتجاه البصرة نحو إستقلال المجتمع الشيعي الأكبر في الجنوب، الطمع في النفط، والحاجة إلى متعصبين شيعة لكي يحاولوابناء كيان مستقر بحيث أن امتداد نفوذ رجال الدين الشيعة في النجف لم يكن قوياً تاريخياً. ولكن أحد أهم الأسباب هو الخوف المتزايد من أن المجتمع العربي السني قد يكون خسر روحه الجماعية. التمرد، وخاصة الإنتحاريين المجاهدين السنة والذين يهدفون باستمرار ذبح المدنيين الشيعة، وهم بدون شك قد دقوا على وتر العلاقات السنية _ الشيعية. يريد الشيعة الآن الحصول على عمق دفاعي، متمثل بمنطقة مستقلة بحيث يصبح بإمكانهم بناء جدار في حال ساءت الأوضاع في البلاد (وهذا من المؤكد لم يحصل بعد، بالرغم من التعليقات الدائمة لدى جهات معينة عن حرب داخلية في العراق).

اتصال الرئيس بوش بالحكيم كان خطوة أخيرة ضمن خطوات تقوم بها الولايات المتحدة والتي في نظري الشيعة تعتبر متساهلة بشكل أحمق مع المجتمع السني الذي أظهر لحد الآن القليل من الرغبة في الإنغماس في المجتمع الديمقراطي. العرب السنة لم يكونوا فيحرب مع محتل أجنبي معتدي (السنة تعاونوا مع بريطانيا في الحرب العالمية الأولى الأمر الذي مكنهم من الوصول إلى السلطة).

المجتمع السني عارض فكرة قيام نظام سياسي جديد متجاهل لهم، على الأقل يجب أن يعطيهم نفوذاً متساوياً مع الشيعة والأكراد. على الأحسن، العرب السنة أرادوا توزيع النفوذ على أساس طائفي، كما هو حاصل في الدستور اللبناني.

حب السيطرة على السلطة هو شيء متأصل في الحمض النووي لدى المجتمع العربي السني. بحيث أنه وعبر مركزية السلطة باستطاعته التوق مرة أخرى للسيطرة على البلاد : التدقيق في الأمر عبر محاولة إيجاد تصاريح داعمة للديمقراطية لدى هيئة علماء المسلمين. الهيئة التي يمكن أن يكون لها الأفضلية في تمثيل شعور الشريحة الأعرض من

المجتمع السني في العراق. وجدت تعليقاً يدين المذابح الغريبة تجاه الشيعة، خاصة في المساجد. من المؤكد أن ذلك يعتبر إشارة تقدم، حيث أن القيادة العربية السنية في العراق لم تستجب بسرعة أو مع كثير من الريبة للإتجاه الجهادي المتمرد في وسائله. من تويجه النيران على الأمريكيين إلى افتراس الشيعة الموضوعين في إطار الخونة (أي الشيعة الذين يعملون مع الأمريكيين والحكومة المنتخبة في نظر الجهاديين والمتمردين).

ومن الجيد الرهان على أن رجال الدين السنة سوف يبنون في النهاية سلاماً مع النظام الشيعي الجديد. مع استثناءات ضئيلة، رجال الدين السنة لم يكونوا عدميين. ليس هناك حب ضائع بينهم وبين الشيعة. الوجود العسكري العراقي الشيعي يبنى ببطء إلى الآن في المثلث السني. الجهود الأمريكية الأولية هدفت لبناء جيش عراقي مع نظام أمني يتضمن مكوناً سنياً بحجم معين، وبخاصة فيلق الضباط الذي يوشط أن يتشكل. من الصعب التحدث عن وجود مثل هذه الخطة لدى الإدارة الأمريكية لأن الضباط الأمريكيين معنيين مباشرة بتمرين القوات العراقية المسلحة والتي لم تبدو أنها تعلم النسب المؤيدة للشيعة والسنة ضمن الرتل. (من الظاهر أنهم كان لديهم قبلاً مثل هذه الفكرة ضمن ضباط الفيلق، ولكن من الظاهر حتى هنا أن التنبه الأمريكي لم يكن بهذا التفصيل المحدد).

ولكن من المؤكد أن لرئيس الوزراء السابق إياد علاوي مثل هذه الخطة، وهو شيعي وبعثي سابق ومرتبط بعلاقة جيدة مع البعثيين السنة، وبالإضافة إلى مسانديه في وكالة الإستخبارات الأمريكية. يريد علاوي، مع شريحة صغيرة من الحكومة الأمريكية التي ما زالت تستمع له وتحترمه، إغراء أو رشوة الضباط البعثيين السابقين للعودة إلى الجيش للقضاء على التمرد. ثمة إمكانية لذلك الآن، ولكن لا يوجد أي عامل يؤدي بالسنة إلى المساومة أكثر من الوجود المتنامي للتسلح الشيعي في وسطهم السني. الميليشيات الشيعية التفت سريعاً في الجيش العراقي الجديد، بالإضافة إلى المؤسسات الأمنية الجديدة، حيث انغمسوا أحياناً في انتقام وحشي ضد العرب السنة، الذين لم يكونوا منغمسين في حركة التمرد. إذا طور الجيش الشيعي سمعة وعطشاً للقتل الإنتقامي، فإن الجانب السياسي للشيعة والمعول عليه لقيام عراق جديد ديمقراطي بالإضافة إلى الجانب السني سوف ينهار ويؤدي إلى حرب داخلية. سوف نقوم باختبار بطيء ومؤلم. ثمة ادعاء اللواء جون أبي زيد بأنه سيكون أثر أمريكا مضيء في هذا الصراع إلى جانب أثر عراقي أقوى، إذا كان الترجيح للشيعة. يمكن أن يكون اللواء أبي زيد قد فضل أن يكون هناك مكون سني في الجيش العراقي، ولكن هذا لا يمكن له أن يحصل في حال قيام عملية ديمقراطية. لكي نرى تقدماً جدياً في العراق، على العرب السنة أن يعلموا من تلقاء أنفسهم أنهم سوف يخسرون في هذا التمرد، وذلك بعد إجراء التغييرات الضرورية، ما حصل للثوار الشيعة عام 1920 سوف يحصل لهم في النهاية. يجب عليهم أن يعلموا بأن العرب الشيعة لن يسمحوا لهم بفرض النموذج اللبناني في العراق، وذلك بأن يتم توزيع النفوذ على أساس الهوية الدينية العراقية، بدلاً من المبادئ الديمقراطية.

الدول العربية السنية سوف تعمل بنشاط لتشجيع أمريكا على دعم النموذج اللبناني. ومن الحكمة أن تبدي إدارة بوش مقاومة لمثل هذا المطلب لأنه قد يؤدي إلى تغذية التمرد وإبعاد الشيعة. كما أن مثل هذه السياسة الطائفية، قد تؤدي إلى قتل الديمقراطية في العراق. والتي تمثل أحد أسباب دعم الأنظمة العربية السنية لهذه الفكرة منذ انحسار الأخلاقية الديمقراطية على المستوى الوطني والذي ينعكس عبر المجموعات الأساسية. بداية هذا الأمر يمكن أن يرى بين الأكراد، الجهة الأكثر تماسكاً في الشعب العراقي : الحزبان الكرديان الأساسيان يمثلان كتلة كردية بوجه التحالفات العربية السنية والشيعية، كذلك وبشكل بسيط بوجه الإئتلاف الإسلامي الكردي المنافس للحزبان المحتكران للسلطة.

ولكن بالتأكيد، يبعث الشيعة ببطء إشارات قوية للسنة بأنهم لن يسمحوا لهم بالنفوذ بأي شكل عبر الإرهاب وحرب العصابات. وهذا ليس بالشيء السهل للشيعة، الذين لا يملكون شعور الفخر بأنهم الأكثرية. كما أن أكثرية الشيعة اليوم ما زالوا يعتقدون بأن العرب السنة سوف يهزموهم في حال وقوع صراع مسلح. الإنقسام القديم للعمال بين الغالبية السنية والخضوع الشيعي ليس من السهل تخطيه من قبل أي من الفريقين. يجب التأكيد أخيراً، على أنه طالما أن الشيعة يرون أنفسهم الجانب المتلقي للعنف والنفوذ، فإن السنة أيضاً سوف يرونهم كذلك، فإن التمرد لن يتقلص.
وإن بناء الجيش العراقي تحت التوجيه الأمريكي هو الآن المفتاح الرئيسي لتدمير الخلفيات القديمة وزرع خلفيات جديدة تملك الفرصة للعمل في عراق ديمقراطي.

العديد من المسؤولين الأمريكيين تأخروا في إدراك ما يجب أن يكون واضحاً عندما قطعت دبابة أبرامز الحدود العراقية الكويتية. الولايات المتحدة متورطة في ثورة في بلاد الرافدين. الكثير من الأمريكيين أدركوا ذلك بالإضافة إلى المنفيين العراقيين في الغرب، خاصة المنفيين السنة، الذين تكلموا عن تفاهة الإنقسام السني _ الشيعي. الأمريكيين اللذين اعتقدوا بأن العراق هو الارض الخصبة لقيام نظام جديد علماني متحرر، تغافلوا عن التطرف، والتمرد والرفض الذي كان حتمياً على الأقل من الجانب السني. هناك أمل متمثل في أن إدارة بوش أصبحت تتفهم بشكل أفضل التفاعلات بين السنة. إذ لم يكن ذلك لسبب سوى أن نصيب أمريكا مرتبط بقيام جيش عراقي جديد، سوف يكون بأغلبية شيعية. والوقائع العسكرية على الأرض يجب أن تبقي الغرائز السيئة لوزارة الخارجية ووكالة الإستخبارات الأمريكية تحت اختبار دائم.

إيران سوف تحاول ما بوسعها خلق بلبلة، ولكن بإمكانها فعل ذلك في حال قيام العرب السنة بدفع الشيعة نحو أحضان طهران. ما زال هناك إمكانية لحصول ذلك، ليس هناك حب جامح بين شيعة العراق وإيران (التنافر بينهما يمكن أن يتصاعد في أي وقت خلال المداولات) ولكن الأول قد يلتجئ لحماية الآخر في حال اعتقاده بأن العرب سوف يكون لهم اليد الطولى والنية للقضاء عليهم. وطالما أن آية الله العظمى علي السيستاني على قيد الحياة ولديه الحرية ليتكلم ما يريد، المبنى السياسي العراقي سوف يبقى على قيد الحياة (ولهذا فإن وجود إشاعات بأن العملاء الإيرانيين يشترون أملاكاً حول بيت السيستاني في مدينة النجف هو مصدر جدي للقلق) شيعة العراق هم مجموعة عنيدة ذات حقد ضروس (ومن الصعب تضخيم النفور القائم مثلاً بين رجال الدين البارزين من آل الصدر وآل الحكيم). آية الله العظمى السيستاني والخوف القائم من العرب السنة يمكن أن يكونا الشيئان الوحيدان الذين يتفق عليهما أكثرية الشيعة.

في بيئة مماثلة يمكن للنظام الإيراني الحاكم أن يجد أرضاً خصبة للتحرك. ويبدو أن تأثير طهران في العراق في تنامي مستمر، ومن الممكن أن يستمر في ازدياد حتى تصبح الأحزاب الشيعية أحزاباً وطنية ذات جذور عراقية. ليس أتباع رجل الدين المتعصب مقتدى الصدر أو أتباع حزب الدعوة هم الذريعة الفضلى للتدخل الإيراني. ولكن المجموعتان تملكان عناصر متجذرة في المجتمع العراقي.

الزواج الشيعي العراقي الوطني متأصل، في بعض الأحيان وحشي (أتباع حزب الدعوة والصدر وبخوا السيستاني بسبب مولده ودمه الفارسي بينما المجلس الأعلى للثورة الإسلامية لم يفعل ذلك) المجلس الأعلى للثورة الإسلامية يمثل الرهان الأفضل للإيرانيين بما أن المنطقة هي في مأزق جدي، والمجلس يدين بنشأته للرعاية الإيرانية، ويعتمد مالياً على طهران، هذا الإعتماد الذي يمثل مصدر القلق الأكبر في الجنوب، بينما يظهر الإيرانيون أنهم يستثمرون هذا الإعتماد بقوة، وحيث يبدو أن التأثير المعاكس لرجال الدين التقليديين ضعيف نسبياً. حتى المجلس الأعلى سوف لن يربح ويحمل طاعة أكثرية شيعة العراق، ما لم يبعد نفسه عن طهران.

المجاهدين والمتمردين السنة قدموا للمجلس الأعلى للثورة خدمة وإساءة بإبراز الدعم الإيراني كملجأ شرعي للمجموعة الشيعية المحاصرة من عرب السنة الفاقدين لعقولهم. ومع ذلك، يجب أن لا نخاف الإيرانيين في العراق. والإدارة الأمريكية سوف تكون حكيمة بعدم استماعها كثيراً للعرب السنة بالإضافة إلى إياد علاوي، العلمانيين والليبراليين. شيعة العراق يرون باستمرار الحشود الإيرانية قادمة عبر الحدود، شيعة العراق هم ليسوا خامس المحررين بالنسبة للفرس. الوطنية بين العراقيين والإيرانيين الشيعية هي شيء قوي للغاية. العراقيين هم أكثر إخلاصاً في إيمانهم وحذرين أكثر من أولاد عمهم الإيرانيين الثوريين. الجانبان أدبياً وروحياً يتكلمان بلغة مختلفة.

مع ذلك سوف يأتي النجاح في العراق ببطء. سوف نتعلم ببطء عبر مراقبة الأفعال والكلمات (خاصة في خطب الجمعة) لرجال الدين السنة الذين من المحتمل أن يلعبوا دوراً سياسياً أكبر في وسط العرب السنة. بعد طول حرمان بسبب صدام والبعثيين فرجال الدين عائدون. عندما يبدأون بالمساومة سوف نعلم بأننا ربحنا (وإيجابيات مساومتهم هي أفضل بكثير في عراق مؤثر بقوة بالإيمان الديني أكثر من عراق حيث هناك سيطرة للعلمانيين السنة والشيعة). سوف نعلم أيضاً أننا نربح عنما نرى ازدياد العنف السني _ السني. (سوف يكون من المدهش مشاهدة الشبكات الفضائية العربية السنية في الشرق الأوسط، والتي تصور المتمردين السنيين على أنهم أشخاص جيدين) يمكننا شجب إدارة بوش _ خاصة القوات العسكرية والمدنية المحتلة _ ريثما سهلت لكل الأخطاء المرتكبة في العراق، ولكن الحقيقة تبقى بأن الإدارة سيرت البلد بشكل فعال

للمحافظة على تقدم التجربة الديمقراطية. بالرغم من الأخطاء المميتة التي ارتكبناها والصعوبات الهائلة لهذا العمل سيبقى هذا الإنجاز غير قابلة للإستهانة به.

إيران :

قد يكون العراق وصمة مشرقة في السياسة الحازمة لإدارة بوش مقارنة مع إيران. بالرغم من عناد العراق، يمكن للشخص ذي الحساسية التاريخية المرهفة أن يجد مكاناً للأمل. مع رجال الدين الإيرانيين _ الكابوس السيء للولايات المتحدة _ من الصعب تأييد أي تفاؤل. يستنتج المراقب المطلع بأن النظام الديني، والمفهوم هو أكثر تحفظاً، والتغيرات الجذرية على مستوى القتال السني المقدس الذي هاجمنا في 11 أيلول سوف يولد الإنفجار رغم الجهود المحدودة لإدارة بوش لوقف تجدده، بعكس الحكمة المقبولة في واشنطن، الرد على طلب إيران المتدينة بخصوص السلاح النووي سوف يشكل مشاكل في العراق أكثر من الأسلوب العضلي لتوجيه ضربة مضادة إلى طهران.
بالنسبة للإيرانيين، المفاوضات النووية مع الإتحاد الأوروبي المدعومة من قبل أمريكا مع الفقهاء لا تخيف بشكل جدي. الإتحاد الأوروبي ممثلاً ببريطانيا فرنسا وألمانيا ذهب إلى أبعد ما يمكن في مفاوضاتهم ذات الأسلوب اللين مع حكومة إيران الدينية. نهضة العواطف الجياشة للثورة الإيرانية تحت قيادة الرئيس أحمدي نجاد واستدعاء السفراء "المعتدلين" البارزين الإيرانيين من أوروبا سوف لن يغير فلسفة وأداء أوروبا في تعاملها مع مشكلة السلاح النووي الإيراني. الدول الأوروبية الثلاث، على الأقل فرنسا وألمانيا، تريد من واشنطن أن تقدم حوافز واسعة. تعريف القاموس لهذه الحالة "استرضاءهم" لاستمرار الحوار الغربي مع الفقهاء.

كان تجاوب الإدارة المفهوم لحد الآن هو السكوت. ولكن استمرار رد الفعل الهادئ هو ليس بسياسة. حتى عندما يدافع محللوا وكالة الإسخبارات الأمريكية عن أنفسهم ويبرؤا أيديهم ويعلنون بأنهم لا يملكون فكرة عن توقيت طهران لامتلاك أسلحة نووية. (إلا إذا أصبحت وحدة القياس الشمسي محظوظة بتحقيقها انتصاراً سهلاً على الإيرانيين الذين سوف يدلون بتطوع عن معلومات دقيقة ومفصلة عن برنامج التسلح الإيراني) عندها فقط ستعلم وكالة الإستخبارات بأن الفقهاء سوف يفجرون القنبلة.
من السهل تفهم مأزق الإدارة مع الجمهورية الإسلامية : التكتل المضاد لن يستخدم القوة اللينة.
وزارة الخارجية، ممثلة بـ نيكولاس بيرنز تتصدى لإدارة السياسة تجاه إيران في الوقت الحالي، والقرار المتخذ من قبل الإدارة لدعم مفاوضات الدول الأوروبية الثلاث كان تجربة مهمة للعلاقات الممتدة عبر الأطلسي بعد الحرب على العراق. من الممكن أن نسمح للواقع الأوروبي بامتلاك سياستنا تجاه إيران. عبر إعطائهم مسؤولية كهذه ستذهب نظرية الجذب وسوف نشجع نضج إرادتهم الكبيرة لتطبيق عقوبات صارمة ضد الجمهورية الإسلامية إذا لم تذعن لوقف تطوير سلاحها النووي. (لمصلحة الدول الأوروبية الثلاث، من الصعب إيجاد مشارك في هذه القضية يؤمن حقاً بأن الإيرانيين لا يحاولون تطوير أسلحة نووية).

بالطبع، النظرية لم تنجح. ومن الصعب لوم الأوروبيين لأنهم كانوا واضحين منذ البداية : هم لم يبدوا إستعداداً أصلاً لفرض عقوبات على إيران بسبب سوء تصرفها في الموضوع النووي. الأوروبيون سارعوا للإشارة إلى ذلك، وبصدق لم يتباحث الأمريكيون في موضوع العقوبات، بحيث أن الجانبان يعلمان بأن فرض عقوبات سوف سيحسن صناعة النفط في إيران، كذلك فإن فرض عقوبات على الجمهورية الإسلامية مع السعر الحالي لبرميل النفط سوف يتطلب شجاعة معينة، وهي مفقودة لدى الطرفين (مجدداً الاوروبيين على الأقل صادقين في قولهم هذا).

من الواضح أن وزيرة الخارجية الأمريكية كوندليزا رايس خائفة من جر إيران إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة بحيث أنه من المؤكد أننا سوف نخسر التصويت هناك. روسيا والصين لن تتعاون، ويمكن للألمان أن لا يتعاونوا أيضاً، وهناك فكرة متداولة في واشنطن تقضي بفرض عقوبات على النظام تكون محصورة فقط بالدول الصناعية الكبرى. هذه فكرة خيالية، بما أن الأوروبيين قد أعلنوا بوضوح بأنهم لن يحظروا بيع قطع المحركات على الحكومة الإسلامية، ما قد يؤدي إلى ضرر كبير ومباشر.

سمحت إدارة بوش بتفهم هذه اللعبة لكي تبقى الخيارات أو السياسات البديلة بثمنها الباهظ : تفجير الإنشاءات المرتبطة بالقنبلة النووية وتطبيق احتواء عدائي بالإضافة إلى خطة داعمة للديمقراطية أو تطبيق خطة صعبة تتضمن احتواءً مع نشر للديمقراطية دون تفجير الإنشاءات النووية. تضخيم عدم استعداد الحكومة الأمريكية وخاصة وكالة الإستخبارات الأمريكية للبدء بإيجاد تشجيع وتقديم دعم مادي للمعارضة الداخلية لحكم رجال الدين. الاوروبيين لا يريدون ذلك. ولكن ما لم تقدم الولايات المتحدة للأوروبيين المغريات اللازمة للتدلي أمام عيون رجال الثورة المتدينين (دبلوماسية الإتحاد الأوروبي تعتقد عادة بأنه يجب على كل شخص أن يكون طماعاً).

واشنطن لن تطبق خطة كهذه. حتى في حال إعلان النظام الديني عن مقترحات تعكس مرونة في مواقفه التفاوضية. (مثل فتح انشاءات بيشاور العسكرية للمفتشين ولكن لا يدل على اتباع "ليونة" في موقف النظام). البعض في الإدارة وخاصة في مكتب الشرق الأدنى لوزارة الخارجية، يريد محاولة تقديم حوافز أكثر، ومؤخراً قامت صحيفة Wall Street بتسريب تقرير يظهر السياسة الخاصة المتبعة تجاه إيران حيث أبدى رغبة قوية لدى وزارة الخارجية لاسترضاء إيران أكثر بسبب تقلص أو تشنج الخيارات. ولكن ثقافة وسياسة وتاريخ النظام الديني الحاكم في طهران تجعل الأمر صعباً للغاية.. إمكانية تخيل دبلوماسي أمريكي يعد نظيره الإيراني بتقديم ضمانات أمنية :"نحن هنا نعدكم أن نترك أفغانستان والعراق، زارعين في كلا البلدين حكومة مريحة لكم.. وسوف نترك وسط آسيا، ونعدكم بعدم الكلام عن الديمقراطية في بلادكم مجدداً، ولن نوجه بعد الآن إهانات شخصية للقائد الروحي علي خامنئي. وذلك بسبب الطبيعة العدائية لهذه الإهانات". بعد ذلك وضمن نفس السيناريو نرسل مساعدات مالية مرفقة وفقاً لطلب رجال الدين. من الصعب تخيل الرئيس جون كينيدي أو الرئيسة هيلاري كلينتون يقدمون مساعدات بملايين الدولارات لرجال الحرس الثوري، مثل الرئيس الإيراني أحمدي نجاد الذي لديه تاريخ طويل في دعم الإرهاب المعادي لأمريكا، بالإضافة إلى قضايا شائنة أخرى. قبل 11 أيلول كان رجال الدين المعتدلين محور تباحث، أما مؤخراً فقد أبدى الرئيس الإيراني رغبته في قلع إسرائيل عن خريطة العالم، والأمر الذي يذكر بأن أفراد النخبة الإيرانية الحاكمة لا يزالون في الأمور المهمة أولاداً مخلصين لآية الله روح الله الخميني. بالطبع فإن أحمدي نجاد، لا يختلف بشكل جوهري عن الرئيس السابق محمد خاتمي، الذي يبغض إسرائيل ويعتبرها مركزاً لرجال الدين العسكريين المتشددين.

أما القائد الإيراني، علي الخامنئي فهو غالباً ما يعطي الإنطباع بأنه يتذكر كل سطر في الطبعة الفارسية لـ"بروتوكولات حكماء صهيون"، أما بالنسبة لعلي أكبر هاشمي رفسنجاني، الشخص غير المفهوم بشكل جيد من قبل الغرب، بالنسبة للأوروبيين وبعض إدارة بوش، فرفسنجاني ذي العمامة البيضاء يمثل الأمل، والسياسي الواقعي المؤمن بفلسفة الذرائع والذي قد يؤمن للغرب الكشف عن أوراق البرنامج النووي، بينما هو في الواقع الأب الروحي لبرنامج إيران النووي، والسيد الأعلى للإرهاب الإيراني الذي ضرب أوروبا في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي. ومن الممكن أن يكون أيضاً أحد أمراء الظل لحملة الإغتيالات المحلية للإيرانيين الليبراليين المتحررين، في أواخر التسعينات. أما بالنسبة لإسرائيل، فرفسنجاني لم يعط أية دلالة على أنه يختلف مع منظمة الجهاد الإسلامي الفلسطينية، ولطالما اعتبر رفسنجاني الداعم لهذه المجموعة.

هذا الأمر يعود بنا إلى السنتين الماضيتين : هل نحن مستعدون لاستخدام القوة العسكرية لدعم نظام لا يسعى للتسلح النووي في مواجهة دولة لها تاريخ طويل في الإرهاب، حيث النخبة الحاكمة فيه هي الأكثر عداءاً لأمريكا على الأرض؟ إذا لم نفعل، فلن يكون هناك قوة تمنع التسلح النووي. لدى نظام رجال الدين الحاكم في إيران تماسك ضخم وحاسة سادسة تواجه الضعف (هكذا أزالوا الشاه) لسوء الحظ، مفاوضات الدول الأوروبية الثلاث جعلتنا نظهر بضعف متزايد. وهذا يمكن أن يتغير في حال قامت الدول الأوروبية الثلاث بمخادعة النظام الديني عبر القول بانهم سوف يفرضون عقوبات قاسية، ولكن لا يبدو أن هذا سيحصل. المكان الحقيقي الوحيد المتسع في هذا الأفق هو آية الله العظمى السيستاني، وإمكانية قيام ديمقراطية بقيادة شيعية خلف الحدود الإيرانية. الرئيس الجديد، بخلاف القديم، يظهر أنه متمسك بالمبادئ الإجتماعية بعناد، وكما أنه قد يجعل الإقتصاد الإيراني مهتز. وهذا لا يمكن أن يتحقق مع أسعار النفط العالية.. نحن بالطبع يجب أن نتمنى له الأحسن، الطريق الوحيدة لإيران للتقدم هي أن تصبح أسوأ بكثير، وأحمدي نجاد قد يكون الرجل الذي يكفل معارضة واسعة للنظام. حالياً، هو والسيستاني هم الأملين الوحيدين لدينا من أجل ظهور تحول ديني في إيران، عبر ظلم النظام الدين الحاكم لرجال الدين التقليديين في المدن المقدسة في قم ومشهد. إذا كانت إدارة بوش جدية، فيجب عليها أن

تدفع وكالة الإستخبارات الأمريكية حتى تبدأ عملية بطيئة وصعبة لمحاولة إقامة إتصالات مع القوى المناهضة للخامنئي ضمن الفقهاء الإيرانيين. وفي كل الأحوال، فإن أي تطور عكسي أو تفكك للنظام سوف يأتي عبر رجال الدين المعارضين وليس عبر الليبراليين الإيرانيين، التقدميين أو غيرهم من مناهضي الثورة الذين يمثلون أتباعاً للمنفيين الأمريكيين من أصل إيراني.

الإستبداد والديمقراطية :
في هذا الموضوع يبدو أن التقدم مشجع مقارنة مع جهود إدارة بوش في إيران. ولكن الفكرة الخلابة لسياسة بوش الخارجية _ نشر الديمقراطية في الشرق الأوسط الكبير _ لا تجري بشكل جيد خارج الولايات المتحدة. فالرئيس بوش له فضل كبير في القضاء على الضعف الشاذ في سياسة أمريكا الخارجية بحيث قامت واشنطن باستثناء الشرق الأوسط المسلم من الخطاب الداعم للديمقراطية، ولكن الإدارة توجه صعوبات فلسفية وعملية للتحرك خلف الخطابات الخلابة للرئيس بوش.

من العدل القول أنه بسبب سوء الإدارة والظلم الممارس من قبل ملوك ومستبدي الشرق الأوسط قد أدى إلى رعاية أشكال سامة جداً من التطرف الإسلامي السني. شعورهم بضغط أمريكي هو اليوم أقل مما كان عليه الشهرين السابقين. هذا الأمر يمكن أن يكون معكوساً. يمكن للجهود الأمريكية _ التي ضغطت ودغدغت سياسة إلهام علييف، قائد جمهورية آذربيجان، لفتح سياسة البلاد، الأمر الجدير بالثناء مع أنه لم يكن دائماً مترابط. جهود السفارة الأمريكية لجعل علييف يوافق على تغميس الأصابع بالحبر كوسيلة لوقف التزوير هو تقدم مؤثر وكذلك فإن قيام السناتور جون ماكيين والذي سوف يزور آذربيجان خلال انتخاباتها القادمة، كان فعلاً جيد وفي الوقت المناسب. على الأرض في باكو، المنشق آذيري سارع في اعتراضه على المساعدة الأمريكية المقدمة. وخلال كتابة هذا المقال، بدى أن حزب علييف الحاكم سوف يقوم بالغش في الإنتخابات النيابية في السادس من تشرين الثاني، ولكن على الأقل إدارة بوش تحاول القيام بعمل جيد في القوقاز أفضل ما تفعله في مصر، بحيث أنها لم تفعل شيئاً لدعم الديمقراطيين المعارضين لحكم الرئيس حسني مبارك الذي سرق الإنتخابات الرئاسة الأخيرة (ولقد كان مخزياً إشادة السفير الأمريكي فرانك ريتشاردون بفوز مبارك بعد حصوله عى 88% من الأصوات).

نحن متوجهين لتبني ما يعرف بمنهجية أتاتورك في الديمقراطية : عبر الدغدغة الأمريكي، سيتوجه المستبدون من خلال فهم إشارات معينة إلى تطوير مجتمعاتهم لتكون أكثر ليبرالية. ولكن مشكلتين أساسيتين في مثل هكذا توجه : 1. لا يوجد أحد يحكم في الشرق الأوسط توأم لأتاتورك، مع إمكانية استثناء علييف، والذي أدرك أي أتاتورك الحضارة الغربية على أنها حضارة مثالية، لم يستبعد الفاشستية من تلك المثالية). وتاريخ العرب منذ الحرب العالمية الثانية يتجه بقوة لبث الإعتقاد بان الحكام المستبدين في الشرق الأوسط العربي لا يتجهون مع الوقت نحو الإصلاح، في أغلب المجالات، يتجهون نحو الأسوأ.

إلى الآن، لا يوجد داخل الإدارة الأمريكية توجه مهم لمناقشة أهمية دفع الحكام العرب المستبدين خاصة مصر باتجاه الديمقراطية، مع العلم بأن الناشطين الإسلاميين سيفوزون في أي انتخابات حرة، لوقت طويل استخدمت العلمانية بشكل سيء من قبل الحكام المستبدين، وطورت سمعة سيئة جداً في معظم دول الشرق الأوسط. الكلام في الإدارة عن تغير يشمل "الجيل" القادم يعبر عن خدعة أو مراوغة فكرية. لا يوجد لـ 25 سنة القادمة نشر للديمقراطية في مصر (قد ترحب النخبة الحاكمة في مصر بمثل هذه اللحظة، لكن بحساسية عالية). حتى تتبنى إدارة بوش مثل هذا النقاش _ وهناك بالطبع إشارات بأنها بدأت _ وتقرر تبني سياسة الدعم المالي، الإستراتيجي، والخطابي المهدد، سوف يبقى البرنامج الأمريكي لنشر الديمقراطية في العالم العربي مجمداً.

إدارة بوش تحتاج لتركيز أو تدعيم مشروعها عبر الخطاب وتقديم المساعدات، وبالتاكيد استطاعت واشنطن دفع مصر والأردن نحو تحول أسرع في العملية الديمقراطية. يجب على الإدارة أن تضغط على ملك الأردن عبد الله الهاشمي للتحرك في هذا الإتجاه بحيث أن المشكلة الفلسطينية سوف لن تحل حتى يتم توحيد الضفة الغربية لنهر الأردن مع الشرقية. بما أن غالبية سكان الأردن من أصول فلسطينية يعيشون تحت تأثير ضعيف لتزاوج الإرهاب والوطنية لمنظمة

التحرير الفلسطينية. خلق أردن ديمقراطي سينتج فلسطينيين لا يؤمنون باستخدام العنف في الضفة الغربية إذا لم نقل في غزة التي لديها الأفضلية للتغلب سياسياً على الصورة المعادية لإسرائيل. الأردنيون يدركون أن الفصل بين الشعبين الفلسطينيين لا يكفي لقيام دولتين فلسطينيتين.

الملك حسين أدرك ذلك مسبقاً.. إن الجهود المخيبة لإدارة بوش لكبح فتح، وهي المجموعة المسيطرة ضمن منظمة التحرير الفلسطينية، سوف تؤدي إلى استمرار الوضع السياسي المتفجر للضفة الغربية الفلسطينية، فتح هي منظمة فاسدة ميؤوس منها تشبه المافيا وتجعل من معارضتها الإسلامية العسكرية أكثر قبولاً، حتى لدى المسلمين اللذين لا يؤمنون بالحرب المقدسة الأبدية مع إسرائيل.

الرئيس بوش يستتحق الكثير من المدح لاستمرار عدم قبوله فرض ضغوط على رئيس وزراء إسرائيل أريل شارون لإجباره على تقديم تنازلات أكثر في وجه الإرهاب المستمر. هذا التوجه موجود في وزارة الخارجية خاصة ضمن دائرة الشرق الأدنى، السياسة الوحيدة الناجحة في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي هي الصبر، والأمل بأن النظام الفلسطيني سينزع الإرهاب من هويته الوطنية. هذا الأمر سيكون صعباً جداً، لوجود أثر ياسر عرفات المدمر والنفسية الإسلامية الإستشهادية القائمة بعمق لدى الكثير من الشبان الفلسطينيين. هذه الرغبة للموت بشكل عنفي موجودة تاريخياً وعبر العصور. ولا يمكن أن تختفي عبر إجراء مفاوضات مع شخص عجوز مثل أبو مازن. هذه الظاهرة لا تبدو أنها تتجه نحو الضعف، بل على العكس فإن الإنتحاريين يتزايدون بين الشباب والشابات، والذين هم بشكل من الاشكال مدفوعين نحو الموت. مما يتوجب على الإدارة أن تبقى تطالب بانفتاح سياسي وممارسة العدالة والمحاسبة ضمن السلطة الفلسطينية. ولكن، يجب أن لا ننسى أنه بدون ديمقراطية في الأردن، ستبقى احتمالات التقدم على المسرح الفلسطيني ضعيفة.

في الأمكنة الأخرى، يجب أن نحول إهتمامنا كثيراً عن مصر والأردن إلى السعودية وسوريا ولكن في الوقت نفسه يجب أن يستمر الضغط على دمشق، دون أن نخدع أنفسنا ونتغافل عن فساد النظام العلوي الحاكم الذي يحاول الإحتفاظ بالسلطة. كما أنه يجب علينا أن نعوض الوقت الضائع، وذلك بتحسين فهمنا للداخل السوري المعارض لنظام بشار الاسد. دعم المعارضة الداخلية في سوريا يمثل خطورة وصعوبة، ولكن يجب أن نبدأ الآن، علماً باننا سنحتاج لوقت لتطوير برنامج عملي مقبلو مضاد للأسد ولتشكيل معارضة مجدية.

الأمر نفسه ينطبق على السعودية، البلد العربي المغذي لـ11 أيلول، ببساطة السعوديين يملكون الكثير من المال. كل ما تستطيع فعله ضدهم هو توجيه خطب داعي للديموقراطية ضمن العائلة المالكة، والقيام بحملة واسعة تكبح الأنشطة التبشيرية الوهمية المعادية لأمريكا بقسوة. على الأقل، يجب دفع وكالة الإستخبارات الأمريكية لتعقب مشاريع الدعم المالي للوهابيين بشكل كاف، ومن ضمنها الشركات المحظورة في الرياض وغيرها من شركات الدعم.

نستطيع بعدها البداية بتقديم مساعدات للمسلمين الذين يريدون مواجهة الماكينة المالية للإرساليين الوهابيين. هذا ليس بكثير ولكنها قد تكون البداية.
خلال الحرب الباردة، ألقينا المال والقوة الإنتاجية على خطط اليساريين، من بينهم المجموعات التي لم تكن تؤمن بالرأسمالية الأمريكية. الهدف الآني ليس إيجاد وتشجيع مسلمين داعمين لأمريكا، الهدف هو أن نجد مسلمين خائفين من التعاليم الوهابية القاضية بنشر التقاليد والثقافة الداعية إلى حرب مقدسة معاصرة. وضمن هذا الصراع الداخلي الإسلامي، معاداة أمريكا قد يكون نقطة بداية جيدة لشن حملة دعائية للوهابية. قد يكون الأمر صعب التبني في سياسة كارين هيوز العامة، ولكن لا يجب أن يكون الأمر كذلك بالنسبة لوكالة الإستخبارات الأمريكية. والتي يجب أن تتبنى بشكل أكبر "صراع الأفكار". وعلى الأغلب، فإن الكثير من المؤمنين المسلمين، يعادون الولايات المتحدة وسيرفضون مساعدات علنية من واشنطن، ولكنهم قد يكونون أكثر استعداداً لقبول مساعدات معادية للوهابية من العم سام.

الأمر الذي يعود بنا إلى العراق، سقوط صدام حسين سرع من وتيرة الجدال الديمقراطي في الشرق الأوسط، حتى في المملكة العربية السعودية، هذا ما لم يكن ليحصل لولا جورج بوش. الإحتمالات الإيجابية الضخمة التي تنبثق عن هذه العملية هي ضخمة حتى لن لم يحصل جورج بوش على الكثير من الأحقية في الشرق الأوسط أو حتى من الأمريكيين.

ولكن النجاح في العراق من الممكن أن يؤدي إلى حل مشكلة السلاح النووي الإيراني. رجال الدين الداعمين للديمقراطية الذين قد يبزغوا من الدستور العراقي الجديد، المدعوم من قبل رجال الدين الشيعة في النجف وحتى من رجال الدين السنة أيضاً هو داء مميت لطهران. بدون حصول تطورات إيجابية في العراق، سوف يبدو أن لدى رجال الدين في إيران الكثير ليخافوا منه.

[في علم ماكيافللي السياسي ما زال جورج بوش وحيداً في احتفاظه بقوة الإقناع والتشجيع]

Research Services Group
ResearchServics.Group@gmail.com